ماوتسي تونغ الشاعر

بقلم نسيف موسى

ان معرفتنا للادب الصيني ، معرفة شبه معدومة ، لولا قراءاتنا لبعض الابيات الشعرية التي تنشرها من حين لآخر بعض الصحف في الوطن العربي ، من الشعر الصيني . وهذا الجهل بالادب الصيني ، عائد الى عدم معرفتنا للغة الصينية الطلسمية ، اولا ، والى عدم تدريس ادبها في جامعاتنا ، ثانيا ، بالرغم من انه ادب مشرقي بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

والادب الصيني ، ادب قديم جدا ، يعود الى آلاف العهود قبل المسيح . والشعر فيه ، هو اقدم اشكاله ، كونه يرجع الى الاغاني الشعبية القديمة .

ولا اعرف للشعر الصيني في لغتنا ، ترجمات غير كتب ثلاثة هي : « شعر من الصين » لماوتسي تونغ نقله عن الفرنسية ممدوح حقي (١) ، وكتاب « الشعر الصيني من اقدم اصوله حتى اليوم » للكاتبة باتريسيا غويللر ماز ترجمة عبدالمعين الملوحي (٢) ، و« قصائد ماوتسي تونغ » ترجمها جورج جرداق (٣) .

والشعر الصيني قرين الحضارة الصينية العريقة ، وقد ارتبط خلال مراحل تطوره بالحياة العامة والدولة ـ فعبّر في آن معا ، عن نوازع النفس البشرية وعن امور الحياة والدولة . وكان اول امره مرتبطا بشكل خاص بالامور الطبيعية والروحانية ، اذ ان المذهب الكونفوشيوسي كان له تأثيره في نفس الانسان الصيني ، يربي فيها الاخلاق والعادات ، والسلوك . زد على ذلك الاساطير الصينية القديمة ذات النوع الغريب التي لا شبيه لها في اساطير الاغريق ولا في اساطير العرب . بحيث نستطيع ان نقول: « ان الشعر الصيني وهو ذو مزية اجتماعية فيها غلو كبير ، فقد كان طبيعيا ان يبقى شديد القرب من الحياة الحقيقية ، من حياة الفرد ، ومن حياة المجموع ، ومنها كان يستلهم تقريبا كل ما له من موضوعات » (٤) .

وهذا كله عائد الى النظم الاجتماعية التي نحياها الصين عبر مراحل تاريخها وحضارتها بكل ما فيها من مرتكزات مادية وروحية ، اذ « ان النظام الاجتماعي الذي يستمد منه الشعر الصيني موضوعاته هو نظام « كونفوشيوس » فليس من المستغرب ان نجد هذا الشعر في جوانبه الفلسفية يعبر على الخصوص عن المشاغل السياسية والاخلاقية ، الا حين تطبعه المؤثرات« التاوية » او « البوذية » بطابعها الخاص » (٥) .

وخير ممثل للشعر الصيني الحديث هو الرئيس ماوتسي تونغ (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) . الذي يتعلق به شعبه تعلقا منقطع النظير . اذ هو زعيمهم وفيلسوفهم وشاعرهم وباني نهضتهم . حتى اذا « سألتهم عن اعظم شاعر صيني معاصر،هتفوا بغير تردد:ماوتسي تونغ » (٦) كيف لا ، وماو ، هو المحرر والقائد والموجه . وان تعلق الشعب الصيني به ، انما يعود للمنجزات التي حققها هذا الزعيم الراحل ، على مختلف المستويات ، بحيث انه جعل الصين دولة عصرية كبرى تقف الى جانب روسية واميركا . وهذا ما فسره تطواف الصينيين في شوارع مدن وطنهم عقب وفاة زعيمهم الشاعر ، وتوديعهم له بالدموع الحارة الغزيرة ، التي بللت جثمانه ، اذ كان عظيما في مماته كما كان عظيما في حياته .

لقد اعطى ماوتسي تونغ شعرا جميلا ، لكن مشاغله السياسية والنضالية ، صرفته عن الشعر زمنا ، وهو لم ينس دور الشعر في بناء الامم وتقدمها ورقيها فعلّق اهمية كبرى على الكتاب والفنانين وضرورة التحامهم بمختلف فئات الشعب حيث قال :« يجب على الكتاب

(*) كتب هذا البحث اثر وفاة ماو ، لكن الحالة التي كانت فيها البلاد ، حالت دون نشره آنذاك .

(١) من منشورات دار اليقظة العربية .

(٢) من منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي دمشق .

(٣) من منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

(٤) الشعر الصيني .. ص ٢ ٤.

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٦) مقدمة شعر من الصين ،بقلم ممدوح حقي ،ص ١٢ .

والفنانين في الصين الجديدة ، ان يتصلـوا بالجماهير ، يجب ان يتصلوا بالعمال والفلاحين والجنود دون انقطاع، ودون تحفظ وقلوبهم مفتوحة لهم ، يجب ان يتصلوا بنضال هذه الجماهير ، وان يجعلوا من هذا النضال ينبوعهم الثر المتدفق الغني ، وذلك لكي يستطيعوا ملاحظة الافراد والطبقات والجماهير ودراستها وتحليلها ودراسة كل ما يتعلق بانماط حياتها واشكال نضالها . فهي لغة والادب على الطبيعة » (٧)

بهذا ، يكون ماوتسي تونغ ، قد وضع الاسس العلمية في الشعر ليستطيع مواكبة الجماهير والتعبير عن امالها وامانيها وتسديد خط سيرها من اجل بناء الدولة الثوره . وجعل الشعر قادرا على العيش بين الجماهير لا في الابراج العاجية ، وحدد خط الالتزام الثوري للشاعر والفنان والاديب . اذ لا يمكن لهؤلاء ان يحيوا بعيدا عن الجماهير . ولا بد للفنان ، ان يكون فنه او ادبه او شعره ، مستمدا من الجماهير ونضالها ومواقفها الوطنية والثورية . اذ التعبر خصوصا ، الشعر غير المقدود من الجماهير شعر ساقط حتما ، والشعر اليوم لا لا بد له ان يتغذى بالدماء والعرق والتعب الخارج من سواعد كل فئات الشعب ومن هنا ايضا حدد « وانج ـ كيو ـ وي ـ » مهمة الشاعر في الحياة اذ قال :«الشاعر يجب ان يكون في وقت واحد ، داخل العالم والحياة، وخارج العالم والحياة . داخلهما لكي يستطيع وصفهما، وخارجهما لكي يستطيع مراقبتهما .» (٨) اذ بهذا التزاوج بين الداخل والخارج يستطيع الشاعر رصف الطريق امام الشعب ليصل الى غده المنشود .

والرئيس الشاعر ماوتسي تونغ كان شاعرا ملتزما وسياسيا بارعا ،وقائدا مخلصا ،ومواطنا مثاليا . وهو الى جانب اهتماماته السياسية ترك تآليف وكتابات اشهرها، مجموعة مؤنفاته وكتاباته ، وديوان شعره ، « وست مقالات عسكرية » بالاضافة الى « الكتاب الاحمر » الذي هو الكتاب المقدس عند الشعب الصيني .

ولقد كان الشعر رفيق ماو خلال رحلته الثورية . فهو منذ قاد الجيش الاحمر عام ١٩٢٧ ليضع اسس الثورة الاولى هتف :

« فوق ذرى الجبال ، هناك ، تخفق اعلامنا .
من فوق القمم ، تتردد اصداء ابواقنا ،
ان العدو ليضغط علينا بكماشة بعد كماشة
ونحن صامدون لا نتزحزح .» (٩)

هذا الشعر الثوري ، تنبض من خلال كلماته ، الروح العالية ، التي كان يتمتع بها ماوتسي تونغ ، والتي كان ينفحها في شعبه وجيشه ومقاتليه من العمال والفلاحين ، هذه الروح بقيت تنبعث منه حتى وفاته يوم ١٩٧٦/٩/٩،

وماوتسي تونغ الشاعر ، هو قائد مسيرة العشرة الاف ميل ، التي سرها الشعب الصيني ليواكب امم العالم . ناقضا عنه غبار تاريخه السحيق، ونير الاستعمار وكابوس الاقطاع والاستغلال . هذه المسيرة هي نهضة الصينيين ، الذين لا يزالون يتابعون المسيرة ، وعيونهم على ماو من خلال ما تركه . وقد عبر ماو عن تلك المسيرة الكبرى بقوله :

« الجيش الاحمر لا يهاب المسيرة الكبرى
عشرة آلاف نهر ، الف جبل، ليست عنده شيئا مذكورا
المدرا الخمس (١٠) المتعرجة ترتفع مثل امواج صغيرة
سهل « وومونج» (١١) ، الرهيب مدرة من التراب
تدكها الاقدام
فاترة هي الصخور التي تتكسر عليها
الامواج في نهر « الرمال الذهبية » (١٢)
جليدية هي سلاسل الحديد على جسر نهر
« تاتو » (١٣) .
قطعنا جبل « ميان » (١٤) وعليه الف قدم من الثلج،
وكان فرح الجيش الاحمر عظيما ..» (١٥)

لقد كان ماوتسي تونغ شاعر الشعب الصيني، واامير شعرائهم ، وهو كما انشد للشعب اجمل اشعاره الثوريه مصورا بطولات الجماهير الكادحة ،كذلك استقى من تراثه، الوطني ، واستفاد من الاساطير القديمة فهو وان آمن بالفلسفة المادية ونظرتها الى الحياة ، يبقى الصيني المجذر بتاريخه القومي ومنابعه الاصيلة وتراثه الروحي :

«لقد هجر الكراكي الاصفر عشه الى حيث لا يدري احد
وبقي الكوخ مهجورا وحيدا ، محطة للسفر العابر ،
ووقفت وحدي انضح ماء النهر الدفاق ، بخمري ،
وفي قلبي موج دافق ، لا يقل عن امواجه الهدارة .
عرامـا وثورة » (١٦) .

ان الواقعية التي عبّر بها هذا الشاعر العظيم ، عن اماني امته ونضالها ، وقضاياها . تظل مفعمة بالروح الرومنطيقية ، والصيني ما تخلى عن الطبيعة في شعره واغانيه ، فالطبيعة عنده ، رفيق آخر . يسامرها ويناجيها ويتعاطف معها ، والواقعية وان صورت الحياة بافراحها ومآسيها تظل مشوبة بعض الشيء بالرومنطيقية الشفافة .

ونحن نسمعه من وراء الغياهب يهتف بلسان الشعب الصيني .

« اما الآن ، فقد ذهب كل شيء
واذا كنا نفتش عن رجال عظماء حقا
فما اجدرنا ان نرنو الى حاضرنا وننظر حوالينا(١٧)

بيروت

---

(٧) الشعر الصيني ص ٣٢ ، من كلمة للرئيس ماو يوم ٤ ايار ١٩١٩.
(٨) الشعر الصيني ، ص ٥ .
(٩) شعر من الصين قصيدة (جبل تسينغ كانغ) ص ٣٢ .
(١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤) اسماء اماكن في الصين.
(١٥) الشعر الصيني. ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ـ قصيدة (المسيرة الكبرى).
(١٦) شعر من الصين ص ٢٨ قصيدة (عش الكراكي الاصفر) .
(١٧) شعر من الصين ص ٦١ قصيدة (الثلج) .